# (٦)

# لماذا اختار جويس اسم (عولس) عنوانا لكتابه ؟

اختار جويس اسم " Ulysses " لكتابه عنواناً ، وترسم خطى هوميروس فى بناء ملحمته المعروفه باسم أوديسة ، لأنها فى نظره ونظر كثير من أهل الفن متناسبة البناء منسقة الأجزاء ، متماسكة الفصول متضامّة الأقسام ، واسعة الآفاق رحبة الفناء ، مترامية الأطراف ، واضحة المعالم ، أشخاصها آلهة وملائكة وملوك ، وبطلها رجل اشتهر بالحنكة والحذر والذكاء والسحر الحلال ، عميق التفكير ، شجاع القلب كان ملك اتيكا فى بلاد الاغريق ، وهرع مع من هرع من الأبطال الى حرب طروادة وخاض غمارها ولكنه نجا من وطيسها ، ولم يصرع بل لم يجرح وإن لم يكن من أقران آخيل وهكتور وإيناس الذين تغنى هومير ببطولتهم ومخاطرتهم فى الإلياذة مما أدى الى موت بعضهم فى مقتبل العمر .

ولم يكن يوليسيز بطل الأوديسة ضارباً بسيف وطاعناً برمح وفاتكاً بالأعداء وغازياً لقلوب العذارى والكواعب الثيبات مثل باريس

ذاك الذى خطف هيلانة زوجة مينلاوس وأشعل نار الوغى بين الإغريق وأهل طروادة ، بل كان عواس بطلاً من نوع حديث ، ومن نوع أبطال أوروبا فى العصر الحديث أمثال مترنيخ وبسمارك ، بطولته وكفايته فى دهائه وإصابة رأيه وحذقه ومكره وبراعته فى الخروج من المآزق ، وتغلبه على المشكلات مهما تعقدت ، وخلاصه من الأخطار والخطوب مهما عظمت وادلهمّت، ونجاته من المؤامرات مهما تفاقمت أخطارها وأتقن الدهاة تدبيرها ، كأنه صدى المتنبى القائل :

الرأى قبل شجاعة الشجعان — هو أول وهى المحل الثانى

والبطل الثانى تليماخوس ابنه وفلذة كبده الذى خلفه يافعاً فى مقر ملكه فى حضانة أمه الملكة أو الأميرة بنيلوب ، الزوجة الفاضلة والأم الرؤوم والقرينة العفيفة الصبور الحافظة شرفها وعهدها ، والوفية لزوجها وابنها ، وقد أحاط بها رجال وفرسان كالعقبان والغربان ، قدموا من الجبال والوديان القريبة والبعيدة ، يتوددون للمرأة التى غاب بعلها غيبة كادت تكون منقطعة ، ويخطبون ودها بعد أن طمعوا فيها وظنوا زوجها لايعود ، كما طمعوا فى ملكه وعرشه وثروته وقصره ، واستضعفوا الولد وظنوا

الزوجة المهجورة فى حكم الأرملة قبل الأوان ، فتزاحموا عليها ، كل يبدى شجاعة وفروسية ، ويعرض قوة بدنه وجمال وجهه وحسن بزّته وتمام سلاحه ، وتكاثروا وتزاحموا وتنافسوا وتشاحنوا وتشاجروا وتراهنوا على أن ينال أحدهم يدها ليظفر بالملك والقصر والتراث والمال ، وكلما وردت الأنباء بنعى الزوج الغائب غلت مراجل الطمع فى قلوب هؤلاء الخاطبين الراغبين فى الزواج .

ولكن بنلوب الوفية الأمينة لا تصدق النعاة ولا تؤمن بخبر وفاته ، ويحدثها قلبها بأنه مايزال على قيد الحياة ، وأنه سوف يعود عما قريب إلى وطنه وعرشه وأهله وولده ، فاتبعت صوت وجدانها وأصغت الى قلبها فيما يحدثها ، وأخذت تتحايل على هؤلاء «الفتوات» المغامرين الطامعين ، وتعدهم تارة وتتوعدهم طوراً ، وتجاملهم حيناً وتخاشنهم أحياناً ، وقد احتلوا البيت وأقاموا ما أقام جبل أولمب ، يأكلون أجود الطعام ويشربون أعتق النبيذ ويقطفون أشهى الثمار فى بيت الرجل وحقوله وكرومه ، وقد اتخذت بنلوب من غزْلها وسيلة لصدهم عن غَزَلها ، فتغزل المفارش والمطارف فى النهار وتستمهلهم حتى تفرغ من صنعها ، حتى اذا جن الليل حلّت خيوطها وفكت رباطها ونقضت غزلها .

ويعجبنى أن القرآن الكريم أورد هذا المثل ، ولا يبعد أن يكون مصدره أسطورة بنلوب ، لأن الله بكل شىء عليم وهو الذى أوحى الى هومير وغيره من الشعراء الهداة الصالحين ما أوحى ، فقال سبحانه وتعالى فى الآية ٩٢ من سورة النحل « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون » ٠

وظاهر الآية أنها موعظة للمسلمين الذين كان بعضهم يرتاب فى مستقبل الاسلام لقلة عدد الأمة العربية بالنسبة للأمم الأخرى ، ومدارها الاعتبار بغريزة النحل وكانت بنلوب تتبع غريزتها فى العفة والوفاء وتعمل بجد ونشاط كالنحل ٠

والسورة تبدأ بقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ٠ وهذه الصفات النكراء (الفحشاء والمنكر والبغى) قد اتصف بها الرجال المتزاحمون على النحلة الفاضلة الدؤوب فى خليّتها وهو بيتها ، وأن الأم وولدها على قلتهما وضعفهما سيتغلبان على الفئة الباغية فى النهاية إذ ينصرهما الله بالوالد البطل ليبين

لهؤلاء الرجال يوم القيامة ماكانوا فيه يختلفون ، وقد قامت قيامتهم فعلا إذ قتلوا جميعاً وظهر لهم أن اختلافهم كان بغير نفع يعود عليهم .

إذن كانت بنلوب تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً زاعمة للخطاب المتهافتين أنها سوف تبتّ فى أمر اختيار أحدهم حين تفرغ من غزلها ، ولكنها لاتفرغ من غزلها أبداً الى أن يأتى زوجها وولدها ويقضيان على أعدائهم جميعاً .

ولم يكن اختيار جويس للأوديسه واتخاذها نموذجاً لعظمتها الفنية وحسب ، بل لأوجه شبه شديدة بينه وبين أحد أبطالها تليماخوس ، فهو يبحث عن أبيه ، لا لأن والد جويس مفقود أو غائب، بل لأنه فى حكم المفقود ، فقد كان والد جويس على قيد الحياة عاصر ولده وحاول إنباته نباتاً مخالفاً لمواهب الفتى ، كما كان غليظ الفؤاد ، مدمناً عربيداً ، وقد آلت حاله الى ماهو أسوأ من غلظة الفؤاد ، فقد صار سكيراً لا نفع فيه شقيت بسبب حاله أم جويس ، وهى تلك المرأة الصالحة التى بدأت حياتها بحال أعظم وأحسن وأفضل مما كان عليه جويس نفسه ، فثبت فى ذهنه أن أباه هذا لا يصلح أن يكون والداً ، فهو فى سبيل البحث عن والده كما

فعل تليماك .

أما أمه الفاضلة العفيفة الصبور القانتة المجتهدة التى ماتت فى سن أقرب الى الشباب ، فشبيهة ببنلوب وقد حفظت شرفها وعرضها وأحبّت ابنها جويس ودللته ولاطفته ودافعت عنه وأحاطته بعنايتها فكافأها على ذلك كله بعصيان أمرها وهى تجود بأنفاسها الأخيرة ، إذ طلبت منه أن يركع بجوارها ليصلى الى الله صلاة الرحمة والمغفرة ، فأبى ، فلما قضت نحبها لم ينس هذه المعصية طول حياته، فكأنه وتليماخوس معذبان بمشاكل الأسرة منذ نعومة أظفارهما ، وكلاهما تفككت أسرته لغياب الزوج أو ضعف أخلاقه ، وكلاهما - جويس وتليماك - غريب بين قومه وغريب فى داره وقد هاجر وهرب وأبق وفرّ أحدهما ليبحث عن والده ولينقذ شرف أمه وليصون عرش أبيه وكيان البيت ، والآخر لينجو بنفسه ، وليبحث عن المثل الأعلى فى الفن وليحفظ مواهبه ويضمن نموها ونضجها بعيداً عن منابت السوء وقد فاز كل منهما بأربه وغايته وحقق فى نهاية الأمور أمله .

هذه هى أوجه الشبه الشخصية التى دعت جويس لاختيار هذا النموذج الإغريقى القديم ، الى جانب جماله وإتقانه وبراعة

إخراجه وحبكة ودقة صنعته .

أما سكر والد جويس وعربدته ، وقد اتخذ منه خصومه مغمزاً ومطعناً ووسيلة لوخز الإبر وتعبيراً وتأنيباً لا محل لهما ، فلم يكن حدثاً فريداً بين نوابغ الأدب الذين ابتلاهم القدر بوالد لايليق بكرامتهم ومواهبهم وعزتهم أن ينسبوا اليه ، فإننا نقرأ فى كتاب تولستوى « طفولة وحداثة وشبابا » مايذهلنا ، لأنه وصف أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عربيداً سافلاً وقد رآه على تلك الصورة وحملته صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، لأن تولستوى كان من صفاء الذهن وقوة الإرادة وحب الحق بحيث يجرح شعور قرائه أحياناً ، فضلاً عن أهله وذويه ولكنه لا يبالى.

وما الدهش وجرح الشعور وخدش الأذهان التى سببها تولستوى إلا لأن الناس تعودوا النفاق الاجتماعى ودرجوا عليه ، ونظروا للدنيا نظرة غامضة متسترة متساهلة كلما اتصلت الأمور بذنوبنا وعيوبنا .

ولكن تولستوى الحكيم المصلح ، يعتقد أنه يكذب ويجانب الحق لو أنه فعل ذلك ، ثم إن الناس درجوا على أن يعدوا الولد مذنباً عاقاً جحوداً إذا عاب فى حق والده أو انتقده ، ولم يصحب

ذكره – خصوصاً بعد موته – بصفات الفضيلة والكرم والشجاعة والرحمة والنخوة ، حتى ولو كان خلواً منها . ولكن تولستوى لا يضحى بالصدق وبالحق فى سبيل المجاملة الاجتماعية أو الظهور بمظهر الأدب نحو والديه أو أحدهما ، وهو لايحمل حقداً لأبيه ، ولا يعتب عليه ولا يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاته وصفاً دقيقاً ، وهو أيضا يصف نفسه كما يراها ويصف أبطال قصصه على حقيقتهم ، ويدعونا الى احترام تولستوى أنه لم يخف حقيقته عن نفسه أو عن قرائه وهو الذى لم يغتفر لأبيه زلة السكر والعربدة ، فقد قضى الفيلسوف المصلح بعض أعوام شبابه فى عيشة الترف والبذخ والحرية المطلقة ، كما كان يعيش السادة فى عهد الرق والاستعباد فى روسيا القيصرية ، وأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ، ومرت هذه الأعوام فى القوقاز ، وهو يتقلب فى أحضان الطيش واللهو ، قال « عشت فى هذا العالم خمساً وخمسين سنة فوضوياً عدمياً (نيهيليست) Nihilist بكل ما فى هذه الصفة من معان لا ثورياً ولا اشتراكياً بل (نيهيليست) أى خارجاً على كل النواميس والشرائع والقوانين » .

فيكون جويس شبيهاً بتولستوى فى الصراحة وحب الحق ،

ولكن الزمان لم يسعف جويس بعراقة الأصل وطيب الأرومة وكثرة المال وشرف المحتد وسعة الرزق والتقلب فى مناصب البلاط ومخالطة النبلاء واللعب بقلوب العذارى ، ثم العودة الى حظيرة الفضيلة فى ختام العمر والتوبة النصوح فى ظل الأسرة ومقاطعة النبيذ ولو كان دواء .

وذلك الخلاف بينهما لأسباب كثيرة ، لأن البيئات مختلفة والثقافة مختلفة والفنون متباينة والمواهب قد تكون متناقضة ، ولأن تولستوى عمر ثمانين عاماً لم يشعر فى يوم واحد من أيامها بضيق أو عسر أو كرب بسبب المال أو الاغتراب أو ازدراء الأغيار ، ولم يشعر بذل الحكم الأجنبى ولا بظلم الحاكم القومى ، فإن القياصرة كانوا يحترمونه ويوقرونه ويعززونه ويقرأون كتبه ، ويصغون الى نصحه ، وكان الحكام من ورائهم يهابونه ويحسبون له حساباً ، والشعب كله يتبعه ويهتف باسمه ، وقد مات فى ديسمبر سنة ١٩١٠ فى إحدى محطات السكة الحديد ، لأنه فر (هو الآخر) فى آخر أسبوع من عمره الطويل من بيته مغيظاً محنقاً من سخافة الكونتيسة زوجته وشحها ولؤمها وثرثرتها ولجاجتها ، فهاجر الى الله وحده ليلقى ربه منفرداً ، وقد لحقت به ابنته المحببة وطبيبه

المخلص وقضى نحبه بين أيديهما .

ولو أنه عاش وأدرك جويس لأعجب به وبعمله ، ومجّده وباركه وبشّره بالخلود كما فعل أرثور سيموندز وأرنولد بنيت وستوارت جيلبرت وازرا باوند وعشرات من نوابغ الشعراء والكتاب والنقاد الذين خلت قلوبهم من الحقد والحسد ، لأنه اتخذ نموذجاً إغريقيا هوميرياً وبذّ هو ميروس ، لأن هومير نظم قصيدة انطوت على أساطير وأدخل فيها الآلهة والأرباب والإنس والجن والسحر الحلال والحرام ، ولعب فيها الدين دوراً مهماً .

أما جويس فقد تصدى للعصر الحاضر ولم يستعن بأبطال هوميروس فى الأرض والسماء ، فكان عمله أشق وأدق وأمجد وأبهر من الأوديسة ، لأن موضوعه ملحمة العصر الحاضر .

إن أكبر شاعر أو ناثر يستطيع أن يروى ما قرأ وما سمع فى الكتب وعلى أفواه الرواة والقصاصين بإتقان ، حتى لينتزع إعجابك، وشكسبير نفسه وضع مسرحياته نقلا عن قصص إغريقى وروماني وإيطالى وفرنسى وتاريخ إنجليزى وشرقى ولم يكن مبدعاً إلا فى الأسلوب ، لا فى الابتكار والمنهج ، وكذلك جوته اتخذ من أسطورة الدكتور فاوست المعروفة المقروءة موضوعاً لملحمته الخالدة ، وكذلك

ملتون عالج الخليقة الأولى وخلق آدم والشيطان وماجرى بينهما فى رياض الجنان ، ووصف الجحيم والنعيم ومعارك الحديد والنار بين الملائكة والشياطين وكل هذا عظيم وجليل وله قيمته الكبرى .

ولكن جيمس جويس مارس وكابد وعالج مايعجز عنه الفحول، وهو تسجيل العصر الحديث الذى عاش فيه ، وهو أصعب عمل أدبى فنى يضطلع به شاعر أو ناثر ، لأنك تكتب مائة صفحة فيما قرأت أو سمعت منقولاً مروياً ، ولكنك تعجز عن تسجيل ما ترى بنفسك ، لأن كل خاطر وكل واقعة أو حادثة ترد على الذهن عن طريق المشاهدة الحسية فى حاجة الى زمن للاختمار والنضج والتمكن والإعداد للظهور على صورة ملائمة ، وهذا يحتاج الى الاستقرار واليقظة والذاكرة القوية وحسن القياس وكمال الإدراك والتمييز ومراعاة السياق وإتقان الصياغة ، وهى صفات تكتب على الورق بسهولة ، ولكن مجرد إدراكها شديد الصعوبة ، دعْ عنك تنفيذها ، ومثلها وصف رحلة تسمعه ، أما مثل العمل نفسه فهو ركوبك متاعب الرحلة ذاتها وما يسبقها من تجهيز وإعداد واستعداد وما يصحبها من مشقات ومتاعب لا حد لها .

وكان جيمس دائم الارتحال دائب التجوال ، لا يقر له قرار ،

ونادراً ما يضع عصا التسيار أو تستقر به النوى ، صحبته الخيبة في ظروف كثيرة ، وكان مثقلاً بالديون معانياً فى طلب الرزق مشتت الشمل فى الغربة ، غربة الجسد والروح ، كل نقلة له من مكان الى مكان بمثابة فتح جديد لجيش أقل عدداً من الجيش المدافع ، فهو فى حاجة الى انتصار جديد يواتيه كل يوم ، وفى حاجة الى الميرة والذخيرة والمدد والعدد ، وفى ظلمة هذا الليل وفى وسط هذه العواصف وفى حيرة الرحيل المفاجىء ، وحسرة البصر الضعيف والعين الجريحة ، أمكنه الله من هذا العمل العظيم ، وهو تسجيل الحاضر واستحضار الماضى بذكرياته لبناء صورة المستقبل المجهول فى أسلوب بل أساليب لم يسبق لها مثيل .

فمما لا ريب فيه أن جيمس جويس كان عبقرياً خالداً ، وأنه أدى زكاة العبقرية وسدد دينها ودفع ضريبتها كاملة ، فالعبقرية الإنسانية نقمة فى ثوب نعمة، وهذه حقيقة أزلية لاتتبدل بالانعكاس ، فقل إنها نعمة فى ثوب نقمة ، وأنها للرجال كالجمال للنساء ، وقديماً قال حكيم فرنسى « الجمال لعنة الآلهة » وهذا قول يبدو غريباً ولكنه صحيح إذا اعتبرنا الجمال عبقرية كاملة ، وسواء أكان الجمال ظاهراً أو باطناً ، أى جمال الوجه أو جمال العقل والروح ،

فهو العبقرية ، والعبقرية نعمة وغنيمة للناس لأنهم وحدهم يستمتعون بها ويستغلونها ، ونقمة لصاحبها لأن العبقرى لايستحسن نفسه ولا ينتفع بها ، وإنما ينتفع بها الناس ، وكل استمتاع ونفع للغير يكلف الذى يبذله من نفسه ومن دمه وحياته ، والإعجاب الذى يبديه المنتفعون أو المتلذذون أو المستغلون لخيرات العبقرى كإعجاب مالك الجواد السابق الذى يعد للسبق من جديد ، وكل مايبذل له من خير صحيح أو خير كاذب كالتمليق والمداهنة فإما يكون أجراً تفهاً يسترد بأضعاف أضعاف ربحه لأنه فرصة سانحة ، وإما يكون خداعاً وتحريضاً ليستمر العبقرى فى بذل جهوده التى تعود على الغير بالخير ونادراً ماتعود على مصدر الخير نفسه بشىء ، وكثيراً ماتعود عليه بالشر ، وهذه الحالة صادقة فى حال كل عبقرى قديماً وحديثاً ، سواء أكان قائداً أم شاعراً أم طبيباً أم خطيباً أم كاتباً ، ولم يهم المستغل شيئاً من ذلك بل هى مسألة استغلال ليس إلا ، فإن دأب العبقرى أن تنصرف أعماله للنفع العام ولنفع الغير ليس إلا ، ويكون بطبعه متواضعاً راضياً بالقليل قانعاً زاهداً لا يجلب لنفسه فائدة، وقد يهمل ذويه وأقرب الأقربين اليه فى سبيل خدمة الأباعد وله من الكرامة وعزة النفس

والإباء مايصونه عن الابتذال .

وقد ترى من حوله من مستغليه - وقد وضع لهم اسم خاص بهم Genvis Victimisers - غارقين فى النعم المادية ، بينا هو ينسى نفسه ، كما تنساه الطفيليات التى تمتص دمه وتعيش على عصير دماغه ونخاع عظامه ، بل على أعصابه وعضلاته ولحمه ودمه ونور عينيه وشغاف قلبه ، ولا نحب ضرب الأمثال لأن كتاباً ضخماً لا يكفيناً .

وإنما خذ مثل جويس وحده فقد تشتت شمله وترك أهله ووطنه فى العشرين من عمره ، وقضى أربعين عاماً فى الغربة ، وفى تكبد المشقات فى الدرس والاستعداد لعمله وفى التنقل من مكان الى مكان من أقصى أوروبا الى أقصى الجزر البريطانية فى سبيل النجاح المرتقب ، ولا يكاد يناله ، ثم يسعى طوال حياته فى سبيل الرزق فلا ينال إلا النزر اليسير ، وقد انبرت كل العناصر لمعاندته ومحاربته ، فوالده سكير مأفون يضيع ثروة الأسرة ثم يبدد أوصالها ، ويهدم الدار التى ورثها على رؤوس أولاده وبناته ، ويبلغ جويس أشده فيجد نفسه ساعياً الى الهيجاء بغير سلاح ، كقول الشاعر العربى :

أخاك أخاك إن من لا أخا له    كساع الى الهيجا بغير سلاح

ومرغماً على أن يخوض غمار الوغى ، ويتحمل صدمات الصراع ، فى حومة حرب شعواء عجوز شمطاء ذات عدة رؤوس بل تنّين فاغر أفواهاً تريد أن تلتهمه .

صراع سياسى لتحرير ايرلندا ، وصراع اجتماعى لرفع مستوى المعيشة والثقافة فى البلاد المستعبدة والجزيرة المحتلة ، وصراع دينى بين الكثلكة وحرية الفكر ، وصراع عقلى بين القديم والجديد وثورة الفنان العالمى الذى اتسعت آفاقه ، وتمددت نفسه حتى تجاوزت الأقاليم وحدود الممالك ، وثورة على القوانين السياسية والاقتصادية والعمرانية ، وحرب بينه وبين أبيه ونويه ، يريد الفوز فيها ليتحرر وينجو بنفسه بعد وفاة أمه وثورته الفردية الكامنة التى ترقى الى النمو الفكرى ، كثورة المراهقة التى قد تؤدى بصاحبها أحياناً الى مايقرب الى الجنون ، وثورة على القوة الخارجية .

رجل مخلوق للمستقبل ، مولود فى الماضى يريد أن يخترق الحاضر ، فيمرق منه مروق السهم الرائش ، وفوق هذه الحروب كلها صراع عواطفه وحبه وميوله واستمتاعه بحياته ، وهو مالا يناله إلا لماً ، فلو لم يكن جويس عبقرياً فذاً ، لهلك وتحطم وانطوى ،

وورد في مقتبل العمر سجل الموتى ، ولحق بدنجام الذى يصف جنازته فى ثمانين صفحة من أبلغ ماكتب فى اللغات الأوروبية ، ولسجلت الصحف نعيه كما تسجل وفاة أى أديب ناشىء كان يرجى له مستقبل زاهر ، والذين كانوا يكتبون رثاءه هم الذين ساهموا فى قتله وأناخوا عليه بكلكلهم حتى قضوا عليه .